الفصل السادس

٣٧ - فلسطين أموية :

بوفاة على بن أبى طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها الشورورية بملك عضوض. فكان الخلفاء الراشدون لا يرثون الخلافة عن آبائهم بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة وإجماعها. وكل من كانت تضعف ثقته بالخليفة يتربص عن البيعة منزويًا فلا يروّع إذا ما خيف شره فإن أضمر خلافًا أو سوءًا يجبر عَلَى البيعة واتباع الجماعة ولكن إذا أنكر من أعمال الخليفة والولاة شذوذًا أو خروجًا عن الشريعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فإن فعلوا سكن مستقيمًا وإلا جاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير والإدارى القدير معاوية بن أبى سفيان الذى لم يكن طموحه إلى الخلافة شرهًا بل كان رجلها الفذّ وبطل بنى أمية الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش فى الجاهلية فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلاً فأرغموا يوم فتح مكة على الدخول فيه فترضاهم النبى ﷺ وجعل لهم امتيازات خاصة فقال «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[1]. وأعطى من غنائم حنين لكل من أبى سفيان وابنه معاوية ١٠٠ بعير ليتألفهم فسموا «المؤلفة قلوبهم» وظل معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحى النبى ثم اشترك وأخاه يزيد فى فتح سورية ونالا فى خلافة العمرين[2] مكانًا عليًا فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما ولى الأمر عثمان وقتل اتخذ معاوية قتله ذريعة لنيل الخلافة وصار يطالب بقتلهِ ويماطل فى بيعة على إلى أنْ فاز عليهِ وبويع له بالخلافة سنة ٤٠هـ فى بيت المقدس. وسنة ٤١هـ بايعهُ الحسن فخلا له الجو ولم يبق له مخالف فاتخذ مدينة دمشق عاصمته لأن أهالى سورية وفلسطين كانوا حزبه القوى وركنه المتين فسكنوا بينهم وتألفوا قلوبهم واقتطعوا الضياع فى

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) المقصود أبوبكر وعمر على التغليب.

فلسطين فأوقف عثمان قريته سلوان عَلَى فقراء بيت المقدس. وعمواس كانت إقطاع يزيد بن أبى سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقى الأردن دساكر خلفائهم فيزيد الثانى توفى فى اربد من أرض البلقاء وسكن الوليد الثانى بعياله وأمواله على ماء الأغدف من نهر الزرقاء وكان يطعم من وفد إليه ثلاثة أيام سواء كان صادرًا من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث ولاية العهد فى الإسلام فبايع إلى ولده يزيد فى حياته فأنكر ذلك نفر من الصحابة الحجازيين وامتنعوا من مبايعته لأنهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم شورى فينتخبون الأفضل والأصلح خليفة لهم فاغدق عليهم معاوية الأموال حتى انصرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطيباتها وأصبحت المدينة مصدر اللهو والطرب رغمًا عما هى عليه من المناخ والإقليم. ولكن البعض أكبر هذا العمل وجثم مستوفزًا فلما قضى معاوية هب الحسين بن على ونزا نزوته فتوجه إلى العراق مشاقًا يزيد فقتله شمر بن ذى جوش (جد عائلة الشمامرة فى قرية طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدفن فيها بباب الفراديس وقيل إنه دفن بعسقلان فبنى الملك الأفضل فى خلافة المستنصر العلوى مشهد الرأس عليه ثم نقله إلى القاهرة وبنى له مشهدًا.

نشأ يزيد بن معاوية فى فلسطين مع أمهِ ميسون بنت بحدل وكان شاعرًا مجيدًا فمن شعره

دعوت بماء فى أنا فجاءنى غلامٌ به خمرًا فاوسعتهُ زجرا

فقال هو الماءُ القراح. وإنما تبدَّى بهِ خدى فاوهمك الحمرا

وبعد وفاتهِ بويع لابنهِ معاوية الثانى فكان فى زمنهِ بيعتان إحداهما إليهِ فى الشام والثانية فى الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تطل مدة الأول أكثر من ثلاثة أشهر فإنهُ لما رأى انشعاب المسلمين وأنهُ عاجز عن إصلاحهم جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: «أما بعد فإنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفهُ أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فانتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم» ثم تغيب حتى مات فهذا عمل الشاب المخلص الذى انقرضت بموتهِ الدولة السفيانية.

اضطربت الأفكار فى سورية وفلسطين واتجهت الأنظار نحو الحجاز فأجمع أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاً أمير فلسطين. وهمَّ شيخ بنى أمية مروان ابن الحكم ليبايعهُ مخافة الفتنة فنصحهُ عبيد الله بن زياد وهون عليهِ الصعب وأشار عليهِ أن يطلب الخلافة إلى نفسهِ فاستشرف إليها ونصره أمير فلسطين حسان بن مالك بن بحدل خال يزيد لأن هواه كان فى بنى أمية فدعا روح بن زنباع واستخلفهُ عَلَى فلسطين وقال له: إنى أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومى فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين فإن جلّ أهلها قومك من لخم وجذام وسار إلى الأردن فأخذ بيعتهم بشرط أن يجنبهم ابنى يزيد خالدًا وعبد الله لصغر سنهما فثار نائل بن قيس الجذامى وأخرج ابن زنباع من فلسطين فالتحق بالأردن وبايع نائل لابن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيهِ حق بنى أمية ويذم ابن الزبير فلم يسمع منهُ فذهب إلى الجابية وقابل بنى أمية وبعد نجوى طويلة بايعوا مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ وذهبوا إلى الضحاك رئيس القيسية فحاربوه فى مرج راهط وظفروا بهِ فبايع من معهُ مروان وفر نائل الجذامى إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زنباع فتم الأمر لبنى أمية فى سورية. ثم توجه مروان إلى مصر ففتحها وبايعهُ أهلها ورجع إلى قرية الصبرة «السمراء» قرب طبرية فشكر حسان واثنى عليه وجد فى السير إلى عاصمتهِ دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنهِ عبد الملك وبعده لعبد العزيز فاعترضت عبد الملك أمور شافة: ثورات داخلية، والخوارج، وشيعة على، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصبر عليها بعزيمة ثابتة وهمة راجحة وذللها فاحتال عَلَى عمرو وقتله وذهب إلى العراق فقاتل مصعب بن الزبير وقتله وامتلك البلاد ثم وجه سنة ٧٣ هـ الحجاج ابن يوسف بجيش إلى الحجاز ليقضى على ابن الزبير فذهب واحتل المدينة وحصر مكة وخربها بالمجانيق وأضر بالكعبة وقسم حراسة أبواب المسجد عَلَى البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بنى جُمح وأبلوا فى ذلك الحرب بلاءً حسنًا فلما تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل عَلَى أمهِ واستشارها

هل يسلم إلى عبد الملك ويأخذ منهُ ما أراد فقالت «أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق واليهِ تدعو فامض له فقد قتل عليهِ أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن..» فقال هذا رأيى فقالت أرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيمًا ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك. وسنة ٨٥ هـ توفى ولى عهده عبد العزيز فعهد إلى ابنيه الوليد ثم سليمان فبايع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمتدينون.

٣٨ - بناء الحرم الشريف :

هو أعظم آثار بنى أمية فى فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسته ونقوشه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية الشهيرة فى الشرق الأدنى.

إن المكان الذى بنيت عليهِ الصخرة كان مقدسًا عند جميع المسلمين لأنهُ من أثر الأنبياء ولأن النبى محمد ﷺ أسرى إليه ليلاً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما عظم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسهِ خشى عبد الملك أن ينصرف عنهُ المسلمون ويبايعوا ابن الزبير لتعلقهم بالكعبة والقبلة فمنعهم الحج «كما قيل» فتذمروا وضجوا فرأى أن يشاغلهم ببناءِ هذا الأثر العظيم حتى إذا حدث ما حذر منهُ سلاهم وطيب خاطرهم بهِ.

فكتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم فى بناء قبة على الصخرة المقدسة لوقاية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء ويأخذ رأيهم فى ترميم جامع عمر ابن الخطاب وتحسينه. وقال: إنهُ لا يقدم على عمل خطير كهذا دون مشورة المؤمنين فرضى جميع المسلمين واستحسنوا رأيه فاستعان بمهندسى الروم وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجاء

ابن حيوة الكندى ويزيد بن سلام فبنيا أولاً قبة السلسلة الكائنة شرق الصخرة لتكون نموذجًا وخزَّنا فيها كل الأموال وفرغا من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ٧٣ هـ وسنة ٦٩١ م وقد فضل مع الوكيلين ١٠٠.٠٠٠ دينار فاخبرا الخليفة فسمح لهما بها مكافأة فرفضا ذلك. فأمر أن يصهر الذهب وتموه بهِ القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة الصخرة من عهد عبد الملك تدل عَلَى تاريخ البناء ولكن المأمون لما أمر بترميم المسجد تقرب إليهِ عماله المتزلفون فاستبدلوا اسم الخليفة الأموى باسمهِ وغفلوا عن تغيير السنة التى حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالى فليس جميع بنائه أمويًا وإنما طرأ عليهِ تغيرات كثيرة بسبب الزلازل والانقلابات السياسية وكر القرون فالذين رمموا الحرم وأضافوا إليهِ زيادات كثيرون منهم العباسيون ففى سنة ١٤٦ هـ وسنة ٧٥٥ م فى خلافة أبى جعفر المنصور حدث زلزال شديد فتصدع جانبًا المسجد الأقصى الشرقى والغربى فأمر بضرب ما كان عَلَى أبوابه من الذهب والفضة نقودًا لينفقونها عَلَى ترميمهِ وفى عهد المهدى أصابه زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقلل طوله وزاد فى عرضهِ ولما زار المأمون سورية وفلسطين أمر بترميم بعض بنايات الصخرة وسنة ٣٠١ هـ أمرت أم المقتدر العباسى بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب «كالصنوبر» (يكثر فى جزيرة جاوا) وسنة ٤٠٧ هـ و سنة ١٠٣٤م فى خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى وكذلك عمرّ فيها صلاح الدين والمماليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد.. إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة ١٩٢٢م وسنة ١٣٤٠هـ واستدعى لإصلاحها المهندس التركى كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة بمبلغ باهظ جدًا.

٣٩ - وقائع الدولة الأموية :

أجمع المسلمون عَلَى بيعة الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسيب وحاول حاكم المدينة إكراهه فلم يفلح. ولما حج الخليفة أخرجوا كل من فى

المسجد ولم يتجرأ أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقيل له: لو قمت قال لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى كنت أقوم فيه. فقيل: لو سملت عَلَى أمير المؤمنين قال: لا والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة فى ناحية المسجد لئلاً يراه فالتفت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد قال: عمر نعم واعتذر عنه بعجزه وضعف بصره فدار الخليفة فى المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بخير. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وهو يقول هذا بقية الناس. وفى خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل عَلَى وهيب بن عبد الرحمن الأزدى فأخذه إلى سليمان بن عبد الملك فى الرملة وتشفع فيه ونجاه وبعد وفاة الوليد أتت البيعة لأخيهِ سليمان وهو فى مدينة الرملة فبايعهُ الناس وهو على سطوح الصخرة وهمّ أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة أو القدس ثم عدل. ولما استخلف عمر بن عبد العزيز أبطل سب عَلِيٍّ عَلَى المنابر وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] فقال كثير:

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف بريئًا ولم تتبع مقالة مجرم

وأمر بإنشاء الخانات فى البلدان القاصية لإعالة مارة المسلمين والتعهد بدوابهم فيطعمون ويقرون يومًا وليلة ومن كانت به علة يبقى إلى أن يشفى. ولما بويع الوليد الثانى كان مقيمًا فى البرية فافتتح أعماله بنفى سليمان بن هشام إلى عمان انتقامًا منه بما فعله معه أبوه. وتبذّل كثيرًا ففسدت أحكامه وعكف على الشراب وجاهر به وانغمس فى الطرب والموسيقى واقتناء الكلاب المطوقة بقلائد الذهب. وانتهك حرمة القرآن. فأكبر ذلك العرب والمتدينون ونفر بنو أمية منهُ وتناجى أمراء قبائل فلسطين وأقروا عَلَى خلعهِ ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول فأجاب طلبهم وظل متكتمًا إلى أن انتشر الوباء فى الشام فخرج العباس بن الوليد

(١) سورة النحل الآية ٩٠

إلى القسطل وأخوه يزيد إلى بادية الأردن وأخذ يدعو إلى نفسهِ ويبايع النـاس سـرًا فعلم أخوه العباس وقال:

إنـي أعيذكـم بالله مـن فتـن ... مثـل الجبـال تسـامى ثـم تندفـع
إن البرّيـة قـد ملـت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعـوا
لا تلحمـن ذئـاب النـاس أنفسكم ... إن الذئـاب إذا مـا الحـمت رتعوا
لا تبقـرنَّ بأيديكـم بطونكـم ... فثـم لا حسـرة تغنـي ولا جـزع

وتهدد أخاه وانذره بالسجن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلـع عـن عملـه. فلـم يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلسة واحتلها وبايعهُ جميع أهلها وضبط الأموال والخزائن وتوافد عليهِ أعوانه فقدم أهالى جرش من فلسطين وغـيرهم وكـان الوليد عَلَى ماء الأغدف فى ضياعه نافرا من الوباء فغضب وسير جنـدًا إلى دمشـق فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسهِ فالتقى العسكران وأسفرت المعركة عن قتـل الوليـد فحنق أهل حمص وخالفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيها بايعوا له. وقد وثب أهالى فلسطين بتحريض سعيد وضبعان ولـدى روح بـن زنبـاع عَلَـى عاملـهم سـعيد بـن عبد الملك فأخرجوه وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك الـذى كـان سـجينًا بعمان فدعـاهم إلى قتـال يزيـد فأجـابوه لأن أهـالى فلسـطين كـانوا ميـالين لأبيـه. ولما بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا معهم على قتال الخليفة يزيد الثالث فعرف بهم الخليفة وسير إليهم سـليمان بـن هشام فاطمع سعيد وضبعان بنى روح وبذل إليـهما المـال ومناهمـا بالولايـة فرحـلا بأهل فلسطين. وبقى أهل الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونـهبوا دواب وسلاح يزيد بن سليمان ومحمد بن عبـد الملك ولحقـوا بمنـازلهم وبلدانـهم فسار سليمان ونزل فى قريـة السمراء «قـرب طبريـة» فاتـاه أهـل الأردن وبـايعوا يزيد بن الوليد ثم ذهب إلى طبرية فصلى بها الجمعـة وبـايع مـن بـها وتوجـه إلى الرملة فأخذ البيعة عَلَى من بها واستعمل ضبعان بن روح على فلسـطين وإبراهيـم ابن الوليد على الأردن.ولكن هذا الانقلاب لم يفد الأهالى شيئًا بل أطمع فى الدولة الطامعين فأنكر مروان بن محمد عمل الخليفة وفظعه. ولما مـات يزيـد قـام بـالأمر

بعده أخوه إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبويع له ولكن الملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتى طبرية فحصر عاملها الوليد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أيامًا فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مخذولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماعص بن عبد العزيز الكنانى فظفر بثابت وبعثه إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فطقعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة انخذل جيشه وهزم وظلت البلاد فى قلاقل إلى أن أعلنت الدعوة العباسية واصطدم الجيشان العباسى والأموى فى وقعة الزاب «قرب الرقة» العظيمة التى هدم بها ملك وقام ملك. فجالد بنو أمية حتى خروا صرعى وكان أحد شبانهم يتمثل:

اذل الحياة وكره الممات وكلاً أراه طعامًا وبيلاً

فان لم يكن غير إحداهما فسيرا إلى الموت سيرًا جميلاً

وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبى فطرس «العوجاء» فوجد الحكم ابن ضبعان الجذامى قد تغلب عليها. فاستجار بعبد الله بن يزيد بن روح الجذامى فأجاره ولكن عبد الله بن على كان يقفو أثره ففتح دمشق وجاء إلى فلسطين فنزل على الأردن ثم بيسان ومرج الروم. فلقيه أهل الأردن وقد سوّدوا فأتى نهر أبى فطرس وأقام فى فلسطين وأرسل بعثاً إلى مصر خلف مروان بقيادة صالح بن على فحاربوه وقتلوه فى قرية أبو صير أما عبد الله بن على فإنهُ تتبع أولاد الخلفاء ووجهاء بنى أمية فقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وأسر من وجدهم وبطش فيهم فقتل ٨٣ رجلاً عَلَى نهر العوجاء فخاف أعوان بنى أمية فبيَّض حبيب المرىّ أحد قواد مروان وفرسانه وخلع بيعة بنى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسية وبعد قتال أخذ الأمان لنفسهِ ولقومهِ ثم انتقض أهل حمص وبعد محاربة أخفقوا فيها دخلوا فى الطاعة وبيّض أهل دمشق فعاد إليهم فثابوا إلى رشدهم بلا قتال وبيّض أهل الجزيرة وقادهم إسحق بن مسلم العقيلى وهو يقول فى عنقى بيعة لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات، فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمان. فانتقال الحكم من دولة إلى دولة أو نزعه من يد

إلى يد ليس بالأمر السهل بل يعقبه انقلابات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم ينفع تعصب مروان إلى النزارية فإنهم خذلوه لما غلب عَلَى ملكه فوثب أهل قنسرين بساقته وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشى فى دمشق ووثب به هاشم بن عمر العنسى والمذحجيون فى شرقى الأردن وعندما مر بفلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم الحكومة الجديدة بكل ترحاب.

٤٠ - محدثات بنى أمية وميزاتهم :

كانت دولة بنى أمية عربية تتعصب للعرب وتحتقر سواهم فرغب ملوكها فى الحضارة ولم يجمدوا ونسوا البداوة وسارعوا إلى اقتباس ما حسن عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحدثوا ولاية عهد الخليفة وهو حى وقسموا إدارة البلاد إلى أمصار وكل مصر إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين. ومن آثارهم المجيدة فى فلسطين قبة الصخرة وإطلال سرايا سليمان بن عبد الملك فى الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضنا عنه لقلة أهميتها. لم تعمر الدولة الأموية طويلاً وعجل على سقوطها أسباب هامة منها.

١ – تعدد ولاة العهد فى آن واحد فكانوا يتنافسون فى الخلافة فينبت الشقاق بينهم ويطمع كل واحد فى الوصول إليها ومن نالها سعى بخلع أخيهِ أو ابن عمه ليحرمه منها ويورثها بنيه فيمتنع الثانى ويقضى امتناعه إلى العداء والتنازع فتتشعب الآراء وتفسد البلاد.

٢ – العصبية الجاهلية : فقد نبضت فى وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى قيس ويمن وتأجج نارها فى خراسان فكان كلما تعين وال من حزب يقضى على الحزب الآخر.

٣ - ميل بعض الخلفاء ورغبتهم فى طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن عبد الملك بقواد أخيه الوليد حتى خثرت النفوس الطامحة وفترت الهمم النازعة

وضعفت آمال الأمراء بخلفائهم ولم يخلصوا لهم فثارت البغضاء ونما الكره فى صدور الأمة فانتكثت الوحدة وانقسمت المملكة إلى حزبين سياسيين لا همَّ لاحدهما إلا القضاء على الآخر وتغاضوا عن الدعوة العباسية التى كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

٤ – احتقارهم الاعاجم والحط من قدرهم مما جعلهم يحقدون عَلَى هذه الدولة لما لحقهم من الذل والصغار فكانوا يلتفون حول كل ثائر ليضعفوها ويهدموها ويبنوا غيرها عله يكون لهم فيها حظ وافر.

٥ – تولية الخلافة لغلمان ليسوا أكفاء فى العقل والتدبير وسياسة الدول.

٦ – انتشار « البروباغندا » بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية «مغتصبوه».

٧ -- انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فوسائط النقل قليلة والمخابرة بعيدة والتجنيد بسيط وأطراف المملكة ممتدة فإذا حدث فتق فى الهند كان لا يصل خبره إلى الشام إلا بعد شهور فلو جهزوا إليها حملة لما وصلتها إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط الثغور لعدم ارتباط العاصمة بها. أما القبائل التى سكنت فلسطين والأردن فكثير: منها جذام التى نبغ منهم موسى بن نصير فاتح الأندلس وروح بن زنباع وبقاياهم بنى صخر والعطاونة فى الكرك، ولخم ومنهم بنى عقبة فى التياها والمسعودى، وتنوخ ومنهم عرب السردية والفحيلى فى تل كلخ، وغسان وبهراء وبلى منهم البلاونة فى بنى صعب والسبع وغور بيسان وكلب ومنهم الشرارات. وقضاعة ومنهم العزازمة. بكر، السكاسك، قيس، الأزد، تغلب، طى.

(٤١) بعض أبطال الدولة الأموية :

١ – معاوية بن أبى سفيان

هو رأس الدولة الأموية وبانى أركانها. كانت تلوح عليهِ مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم «سيسود هذا الغلام» فقالت أمه هند «ثكلته أمه

إن لم يسد غير قومه». اختاره النبى ﷺ لكتابة وحيه وعيّنه أبـو بكـر قـائدًا فـى فتـح سـورية وامّـره عمـر ففتـح قيسـارية وعسـقلان ويافـا واسـترجع أكـثر البـلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية فى أواخر خلافة عمر. وظل يـترقى إلى أن استوثقت له أحكام سورية وفلسـطين ثـم بويـع بالخلافـة فصـانع رؤسـاء العـرب وداراهم وترضاهم ونظم البريد وقسم الطرق إلى منـازل وجـهزها بالرجـال والـدواب لاستلام ما يردهم وإيصالـه إلى مـن بعدهـم ولقـد احـدث السياسـة والتسـاهل فـى الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمـل ديوان الخـاتم «تغليـف الرسائل» وأنشأ أسطولاً بحريًا مؤلفًا من ١٧٠٠ قطعة ورتب له أميرًا وجعـل يغـزو الروم برًا وبحرًا وحصر القسطنطينية وكاد يفتحها لولا النار الإغريقية ورأى تطلـع الناس إلى الخلافة وخاف حدوث الفتنة فبايع لابنهِ يزيـد وأحـدث ولايـة العـهد وتبعه من بعده وكان يقول: « لـو كـان بينـى وبـين النـاس شـعرة مـا قطعـت إذا شدوها أرخيتها وإن أرخوها شـددتها». وكـان عمـر بـن الخطـاب يقـول تذكـرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاويـة ومـن قولـه: «إنـى لأرفـع نفسـى مـن أن يكون ذنب أعظم من عفـوى وجـهل أكـبر مـن حلمـى وعـورة لا أواريـها بسـترى وإساءة أكثر من إحسانى» وقال: «أحب الناس إلى أشدهم لى تحببًا إلى الناس».

وقد كتب إلى على بعد وقعة صفين: «أما بعد فلو علمنـا أن الحـرب تبلـغ بنـا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وإنا وإن كنا غلبنا عَلى عقولنا فقد بقى لنا ما نرد به ما مضى ونصلح به ما بقى وقد كنت سألتك الشـام علـى ألاّ تلزمنـى لك طاعة وأنا أدعوك اليوم إلى مـا دعوتـك إليـه أمـس فـإنك لا ترجـو مـن البقـاء إلا ما أرجو ولا تخاف من القتل إلا مـا أخـاف وقـد والله رقـت الأجنـاد وذهبـت الرجال ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعـض فضـل يسـتذل بـه عزيـز ويسترق به حرٌ والسلام».

٢ - الحجاج بن يوسف «كليب»

هو من قبيلة ثقيف كان معلم مكتب الطائف ثم التحق بروح بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك إلى أن فسد جند الخليفة فأصبحوا لا يرحلون برحيلـه ولا ينـزلون

بنزوله فأشار عليه روح بتوليه الحجاج أمر العسكر فقلده إياه فالزم الجيش الطاعة وجبرهم على محافظة النظام فتأخر يومًا أعوان روح بن زنباع فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين فقالوا له: انزل يا ابن اللحناء فكل معنا فقال لهم هيهات ذهب ذلك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّقهم فى العسكر وأحرق فساطيطهم ففزع روح إلى عبد الملك وشكاه فقال له: علىَّ بهِ فلما دخل قال له «ما حملك عَلَى ما فعلت» فأجابه أنا ما فعلت بل أنت فعلت إنما يدى يدك وسوطى سوطك وما عَلَى أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدّمنى له فاعجب به وتقدَّم فى منزلته وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

حارب ابن الزبير وآلى ألاَّ يشلح السلاح . . . . . ولا يتطيب حتى يظفر به وحصره ورمى الكعبة بالمنجنيق فأرعدت السماء فاعظم ذلك أهل الشام فأخذ الحجارة ووضعها بيده فى المنجنيق ورمى بها وقال «يا أهل الشام لا تنكروا هذا فإنىّ ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر» ولما عين عاملاً عَلَى تبالة فى اليمن ذهب وسأل عنها فقيل له: إنها خلف هذه القلعة فرجع قائلاً: «لا بارك الله فى مدينة تسترها ذروة».

ولما شمخ أهل العراق وخشنوا عين إليهم فذهب باثنى عشر راكباً ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد فصعد المنبر وأعلن الحكم العرفى بخطبتهِ المشهورة التى منها:

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. . . إلخ وانساق له العراق وبنى مدينة واسط التى دفن بها وهو من الذين وطدوا الملك لبنى مروان وأخباره طويلة يرجع إليها فى المطولات. فهو بالإجمال من أعظم قواد الفتوح وولاة البلاد والجيوش.

٣ - موسى بن نصير اللخمى

كان شجاعًا تقيًا لم تهزم له راية ولىّ إفريقية فصرف همته فى تعريب البربر وإدخالهم فى الدين الإسلامى فغزاهم وقهرهم وأتم بلادهم فتحًا ثم أرسل مولاه

طارقًا إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قائلاً «اين المفر! ! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا ا لصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشهِ وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم غير ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم» ثم لحق به فاكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامى إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قابل أعماله الجليلة بالإساءة والكفران فعزله عن جميع أعماله وحبسه وأغرمهُ مالاً كثيرًا. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقى الذى اخترق جبال البيرينية وأوقع بالافرنسيين فى سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين.

٤٢ - الدعوة العباسية :

لم يقم من بنى العباس من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليهم فنسيتهم الأمة ولم يتشيع لهم أحد فقضوا أوقاتهم بمعزل عن الحركات السياسية حتى سنة ١٠١ هـ إذ وفد عبد الله بن محمد بن الحنفية عَلَى الخليفة سليمان بن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه فى الطريق فلما قصد الحميمة(*) قرية محمد بن على العباسى عاذ به العلوى وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا ابتدأت الدعوة العباسية. وقد تطورت فى دورين الأول، دور الدعوة وهو من سنة ١٠١هـ - سنة ١٢٩ هـ نشرت فيه محبة آل البيت ومساوئ بنى أمية بتأن وتريث والثانى دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وجُهر بها.

عرف العباسى أن كل محاولة فجائية يعقبها الخسران وأن هدم الدول وتأسيسها ليس بالعمل السهل وخشى إن هو أعلن اسمه أن ينفض من حوله دعاة العلويين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط ووجههم إلى خراسان فأسسوا جمعية سرية ذات فرعين الفرع الأول النقباء وهم اثنا عشر والفرع الثانى المبشرون وهم سبعون رجلاً يطوفون البلاد ويثيرون الناس ضد بنى

(*) هى الحميمة عند طبرية على الطريق الحجازى والعراقى. كانت قرية حقيرة أقطعها الوليد بن عبد الملك إلى محمد بن على بن عبد الله عباس واسكنه إياها

أمية واتخذوا موسم الحج مؤتمرًا عامًا يتداولون فيهِ الآراء وكانوا كلما اعترضتهم عقبات ذللوها حتى سنة ١٢٠ هـ فعظم الخلاف بين المضرية والنزارية فتنفست الشيعة وجدّت فى أمرها وفى سنة ١٢٩ أعلن أبو مسلم الدعوة ولبس هو ومن معه السواد شعار العباسيين ونشروا الرايات السود «الظل والسحاب» فعرف بهم نصر بن سيار فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو ... وإن الحرب مبدؤها كلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

فأجابه اقطع هذا الثألول ولم يعبأ به. أما أبو مسلم فأخذ يتقدم ويفتح البلدان ويرسل قواده فيستولون بسرعة على إقليم بعد إقليم حتى استوثقت له خراسان ولا أحد يعلم لمن هى الدعوة إلا المبشرون بها إلى أن وقع كتاب إبراهيم الإمام فى يد الخليفة مروان فأرسل إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحميمة من يأخذ إبراهيم ابن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذه من مسجد القرية وهو ملفف وحمل إلى الوليد فبعث به إلى مروان فحبسهُ فى حرّان فاثبت وصيته إلى أخيه أبى العباس السفاح ودفعها إلى مولاه سابق الخوارزمى وأوصاه أن يقوم بالدولة وألاّ يلبث بالحميمة بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبو العباس أهل بيته وسار إلى الكوفة وسنة ١٣٢ هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسفاح وأخذت له البيعة علناً فى المسجد من الصباح حتى جنهم الليل وظل نجمهم يشرف ونجم بنى أمية يغور حتى قتل مروان ومكوا جميع الأقطار.

ومن تأمل فى فوز العباسيين وهم جمعية بسيطة على بنى أمية وهم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخراج يأخذه العجب ويستغرب كيف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجالها مخلصون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.